# الأوضاع الدينية في غرب أوروبا حتى قيام الحركة الصليبية

د. محمد صالح منصور
قسم التاريخ
كلية الآداب جامعة قاريونس

## مقدمة

- الكنيسة الغربية ونفوذها الزمني
- البابوية وهيمنتها على المجتمع المسيحي الغربي
- العلاقة بين الكنيسة والدولة
- صحوة الكنيسة وحركة الإصلاح الديني في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر

أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية في غرب أوروبا على أيدي الجرمان في أواخر القرن الخامس سنة 476م فترة قاتمة امتدت حتى القرن الحادي عشر، وأطلق بعض المؤرخين على تلك الفترة في التاريخ الأوروبي اسم العصور المظلمة [1]. وكانت أوروبا في ذلك الدور مرتعاً خصيباً للفوضى والضعف والفساد والاضطرابات. وبؤرة للأمراض والأوبئة، نتيجة للقحط والجوع، ومن بينها المجاعة التي عرفتها أوروبا سنة 1033م وساعد على سوء الأحوال أن أساليب الزراعة كانت عندئذ لا تزال وقتذاك بدائية، كما كانت الطرق والمسالك قليلة ووعرة، مما أتاح المجال لظهور العصابات الكثيرة من قطاع الطرق. فدأبوا على شن الغارات على الفلاحين، ومهاجمة الكنائس والأديرة، للنهب والسلب[2]ولم تقتصر مظاهر التأخر والانحلال التي أصابت المجتمع الأوروبي في تلك الفترة على الانحلال السياسي، وإنما امتد التدهور إلى الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. وإذا كان غرب أوروبا قد شهد صحوة ملحوظة على أيام شارلمان في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع، فإن هذه الصحوة جاءت قصيرة العمر في الوقت الذي أخذت جموع الفيكنج[3]Vikings تترح من الشمال لتغير على مواطن الحضارة وتدمرها في غرب أوروبا، في الوقت الذي أوغل الهنغاريون في وسط القارة حتى شرق ألمانيا، يخربون ويفسدون. وفي وسط تلك الأزمات تحايل الغرب الأوروبي بالنظام الإقطاعي للحصول على قدر من الأمان والحماية، فانحلت السلطات المركزية منذ القرن التاسع، واضطر الأباطرة والملوك إلى التنازل عن كثير من حقوقهم وسلطاتهم لأمراء الإقطـــاع[4]Feudalism.ولكن إذا كان كبار الأمراء الإقطاعيين قد نجحوا في حماية رعاياهم من الهجمات الخارجية، فان أولئك الرعايا دفعوا الثمن غالياً في ظل نظام اعتمد في فلاحة الأرض على الأقنان وعبيد الأرض وقام على أساس تحكم القوى في الضعيف.

[1])د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جـ1، ط3،ص19.

[2]) M.Jullian:Histoire De la France et Des Francais, Tome II, arousse, Plon,1970mP 27

[3]) الفيكنج: العناصر الشمالية التي سكنت شبه جزيرة اسكندناوة وشبه جزيرة الدنمارك وغزت أوروبا في القرن التاسع وهم سكان الفيوردات والخلجان ويرجعون إلى الأصل التيتوني الجرماني.
فشر : تاريخ أوروبا ط6 القسم الأول، ترجمة محمد زيادة والباز العريني، دار المعارف، القاهرة 1976،ص115-136؛ سعيد عاشور: أوروبا ج1 ، ط1

[4]) انظر: عبد القادر احمد اليوسف: العصور الوسطى الأوروبية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت1967،ص117-138.

ولم يكن في استطاعة البابوية والكنيسة الغربية أن تسهم بأي جهد لتعديل تلك الأوضاع، لان الكنيسة نفسها- التي ظلت منذ سقوط الإمبراطورية في أواخر القرن الخامس تمثل اكبر قوة في المجتمع الغربي- تعرضت هي الأخرى لموجة جارفة من الانحلال والذبول في القرنين التاسع والعاشر، فجرف التيار الإقطاعي رجال الدين وتصدع سلطان البابوية، وانحط المستوى الخلقي لبعض رجال الكنيسة[1]. ومنذ أواخر القرن العاشر الميلادي، اهتمت المجالس الدينية، التي انعقدت في مقاطعات فرنسا بسن تشريعات، ووضع قواعد للأمن ، من اجل المحافظة على سلام الله وهدنة الله[2] ففي كل مقاطعة ظهر تشريع، يقضي بتعزيز قواعد السلام، وتألفت هيئة تنفيذية للمحافظة على السلام، وتنفيذ القرارات الخاصة بذلك. غير انه اتضح انه لابد من توجيه النزعة نحو حب المقاتلة توجيهاً سليماً ، فاتجهوا نحو ممارسة الفروسية، وان كانت الكنيسة قد سبق وان حاولت قمعها، لأغراض مثالية ورغبات نبيلة. وضمن هذا الإطار، يصح اعتبار الحروب الصليبية، مرحلة من مراحل الإصلاح الديني للمقاتلين من العلمانيين[3].

والواقع انه قبيل بداية الحروب الصليبية كانت أوروبا ساحة لحروب داخلية عديدة، إذ لا تكاد حرب تضع أوزارها حتى تنطلق أخرى، حيناً بين دولة وأخرى، وأحياناً بين مقاطعة وأخرى، أو بين أسرة وغيرها من الأسر،وساعد ذلك ذبول نفوذ السلطة المركزية بعد أن صار لكل أمير ودوق جيش يحميه ويأتمر بأمره . وكانت المقارعة بالأسلحة هي الوسيلة الوحيدة للتعامل بين هؤلاء الأمراء، وغالباً ما كانت تلك الحروب تشتعل لأبسط الأسباب، وتمتد بين العائلات لأكثر من جيل، وهكذا غدت أوروبا في تلك العصور بؤرة للفوضى والانقسام والخلاف في ظل ضعف القوانين والحكومات.هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن سياسة الكنيسة أخذت تتصف في بعض أعمالها بالتجاوزات بحيث غدت المصالح أساس ولاية المناصب فيها في ظل الصراعات الداخلية.

---

[1]) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، جـ2، ط4 مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1982،ص19-20.
د. سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى،جـ1،ط 5، ص 339، M.Jullian:op.cit.II,p.28
وانظر كذلك ج.و. كوبلاندو . فينوجرادوف : الإقطاع والعصور الوسطى في غر ب أوروبا، ط3 ترجمة محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1958.

[2])وهي أوقات معلومة يحرم فيها القتال:
سلام الله Pax Dei فرضت لحماية رجال الدين وممتلكات الكنيسة والفقراء من القتال.
هدنة الله Treuga Dei: الامتناع عن القتال ابتداء من مساء الأربعاء الى صباح الاثنين والمناسبات والأعياد المقدسة.
آرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ط2، دار النهضة العربية، بيروت1967،ص12.

[3]) أرنست باركر: الحروب الصليبية ، ص11-12.

أما من الناحية الاجتماعية فقد عم البؤس والفقر والجهل في ظل النظام الإقطاعي الذي شمل السيطرة على الأرض والإنسان معاً. هذه بعض المعطيات والحقائق التي كانت تعيشها أوروبا قبيل بداية الحروب الصليبية، وقد حدث ذلك في الوقت الذي اتسعت فيه الدولة الإسلامية وازدهرت حضارتها، ووقع الكثير من البلاد التي كانت تدين بالمسيحية مثل الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقية في أيدي العرب المسلمين[1] .

وقد حدث قبل مجمع كلير مونت-الذي انعقد في نوفمبر 1095م- أن حاولت الكنيسة جمع الشمل المسيحي لمحاربة المسلمين فكان أول نداء من اجل تحقيق ذلك في القرن التاسع، وذلك بعدان تمكن المسلمون من غزو صقلية الايطالية، مما انذر بتهديد روما نفسها. من ذلك أن البابا ليو الرابع(847-855) ثم البابا حنّا الثامن(872-882) وجها نداءات إلى ملوك الغرب والمشرق المسيحيين لمحاربة المسلمين بل إنهما عرضا على المتطوعين امتيازات مغرية، وأعلنا أن الذين يشاركون في تلك الحرب سيدخلون الجنة، ومنذ ذلك الحين أضيفت على الحرب مع المسلمين صفة القداسة، وتبدو هذه النظرة للحرب مهمة في وقتها، لأنها جاءت لتقارع النظرة البيزنطية، والتي لم تعتبر الأموات في تلك الحروب شهداء . على أن اهتمام الكنيسة خمد لفترة ما وخاصة بعد إن استطاع البابا جريجوري السابع(1073-1085م) حماية روما من التهديدات الإسلامية، وقد عمل هذا البابا على توحيد شطري الكنيسة الغربية اللاتينية والشرقية اليونانية من اجل التغلب على المسلمين، بل انه عمل على تحريض المسيحيين في افريقية ضد المسلمين[2].

وفي تلك المرحلة انتشرت الأفكار التي تدور حول نهاية العالم بعد الألف الأولى من معاناة المسيح على الصليب، والأفكار التي تتعلق بالعالم الآخر ، مما ساعد على إنعاش الفكرة الصليبية، فشاعت في أوروبا الغربية قرب نهاية القرن العاشر الميلادي وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي أفكار، وحكايات، وقصص، وأساطير تتحدث عن قرب نهاية العالم مع اكتمال الألف الأولى بعد المسيح ( حوالي سنة 1033 ميلادية) . وقد ظهر في عدة أماكن في أوروبا الغربية ظواهر فلكية وطبيعية اعتبرها الناس دليلاً على اقتراب نهاية العالم. وكان مفهوم الأوروبيين آنذاك مثقلا بالأفكار الغيبية إذ كانت العقيدة الكاثوليكية عشية الحروب الصليبية لا تزال بعيدة عن تحديد إطارها بشكل متكامل، ولم يكن الأساقفة والقساوسة، غالباً ، في المستوى اللائق الذي يؤهلهم للنهوض بمهام وظائفهم، سواء من حيث مستواهم الفكري أو من حيث سلوكهم وأخلاقهم، كما أن

---

[1]) M.Michaud:Histoire Des Croisades,Tome I,A.J.Ducollet, Librairie.Editeur, Paris,.1838,p.100
M.Jullian:Histoire De la France, Tome IImp.28

[2]) F.Chaladon:Histoire De la Premiere Croisade, Auguste Pisard,Editeur,Paris,1925.p.11

الغرب الأوربي ظل حتى ذلك الحين ريفي الطابع، وكان الدين بالنسبة لسكانه- وهم أغلبية سكان أوروبا آنذاك- مزيجاً من الخرافة، وطقوس عبادة الطبيعة، وبعض تعاليم[1]المسيحية. وفي ظل هذا الحجم النفسي والتخلف الفكري اللذين سادا أوروبا المسيحية. وفي ظل الكاثوليكية في القرن الحادي عشر الميلادي، كان طبيعياً أن ترد الظواهر الطبيعية الى قوى غيبية من ناحية، وان يتم ربطها باقتراب نهاية العالم والأفكار الألفية والأخروية من جهة أخرى. وكان الناس الذين سيطرت على وجدانهم آنذاك هذه المشاعر تواقين لضمان الخلاص، حتى تحولت مشاعرهم هذه إلى التأكيد على ضرورة الرحلة إلى بيت المقدس وقد انعكس ذلك في ظهور عدد الرحالات التي قام بها الحجاج من غرب أوروبا صوب ذلك في ظهور القدس في السنوات القليلة التي سبقت وتلت الألف الأولى بعد ميلاد المسيح[2].

أمـــا طبقة الاقنان ورقيق الأرض، وهي التي كانت تئن تحت عبء الالتزامات والقيود الثقيلة المفروضة عليها، في ظل هذه الظروف حاولت الكنيسة أن تنهض من كبوتها وسعت إلى إيقاف الحروب الداخلية في أوروبا ، وكذلك إجراء بعض الإصلاحات داخل الكنيسة حتى تستعيد وتجديد دماءها من خلال تعيين بعض رجالات الدين الشباب. وبعد ذلك وجهت أنظارها إلى وضع المسيحية في المشرق وكذلك محاولة إيقاف التهديدات التي تتعرض لها الإمبراطورية البيزنطية المسيحية، فبدأت تخطط لحرب أرادت لها أن تكون حرباً بابوية محاطة بهالة من القدسية الدينية، ورأت فيها جبهة جديدة تستعرض فيها نفوذها، واعتبرتها متنفساً جديداً لصراعها المستمر مع السلطة الزمنية[3]، وهكذا وجدت الجماهير في أوروبا في تلك الدعوة المنفذ المحقق للإفلات من أغلال الإقطاع[4] ، تحميها في ذلك الكنيسة والبابوية تحقيقاً للأهداف الرئيسة والجوهرية للفكرة الصليبية[5].

---

1)قاسم عبده : ماهية الحروب الصليبية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة1933،ص18-20.

2)قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ،ص20.

3) M.Michaud:Histoire Des Croisadws, Tome I,p.101.

4)جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين، ص77.

5) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين ، ص177

## أ-الكنيسة الغربية ونفوذها الزمني

استطاعت كنيسة روما، بوصفها الكنيسة البابوية الوحيدة في النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية، ان تتدخل مع السلطات الزمنية لصالح الكنائس الأخرى ولاسيما وقد جمعت إلى جانب الموقع الجغرافي ثروات طائلة ساعدت بها الكنائس الفقيرة. والواقع إن التقدير والاحترام الذي حصلت عليه الكنيسة الرومانية بهذه الطريقة، لا يحتاج إلى تعزيز الأمر الذي مكنها إلى أن تحقق هيبتها الدينية. يضاف إلى ما سبق إنها الكنيسة التي تنسب إلى أعظم اثنين من الحواريين هما بطرس وبولس[1]. وحتى أواخر القرن الثاني للميلاد اعتبر أسقف روما الأسقف الوحيد في ايطاليا وهكذا غدت كنيسة روما الكنيسة الرسولية الوحيدة في الغرب كله، مما جعل أسقفها في منزلة تعادل ما لاساقفة الكنائس الشرقية القديمة من مكانة، ومن المعروف انه كان رأس الكنيسة في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس خمسة بطارقة في روما والقسطنطينية وانطاكية وبيت المقدس والإسكندرية ولكن بطريق روما استطاع أن يحقق لنفسه نوعاً من الأولوية من خلال التطورات التي حدثت طوال القرنين الرابع والخامس[2].

كـــان من أسباب قوة الكنيسة أن كل رجل دين ينتمي إلى كنيسة كان لا يجوز له تركها إلا بأمر كتابي من الأسقف، ومن الناحية النظرية كان الأساقفة يتم انتخابهم عن طريق رجال الدين في كنسيتهم، ويتم الانتخاب في الكاتدرائية تحت رئاسة المطران او الأسقف التابع للمقاطعة، وفي الحال يحصل الشخص الذي تم انتخابه على كرسي الأسقفية[3]، لقد كانت قوة الأسقف كبيرة، فكانت الوظائف الدينية كلها تحت رعايته، وكان عدد معين من رجال الدين يعيشون في منزل الأسقف الملحق بمبنى الكنيسة إقامة دائمة، والأسقف هو المسؤول عن إرادة الكنيسة وممتلكاتها.

مـــن ناحية أخرى فان كل الممتلكات التي تحصل عليها الكنيسة كانت غير قابلة للتحويل أو التنازل، فبالإضافة إلى ملكيات الأراضي كانت الكنيسة تتلقى من الملوك والحكام امتيازات مالية معينة مثل الإعفاءات من دفع الضرائب، وغالباً كان الملك يعطي الكنيسة الحق في فرض الضرائب في مناطق معينة. ويلاحظ ان

---

(1) . G. Borraclough : The Medieva; Papacy, Harcourt, Brace and World, INC,2 ed-Britain,,1972,p.14,18.
محمود سعيد عاشور: معالم أوروبا في العصور الوسطى،ط2، دار النهضة العربية ، بيروت1986،ص154.
E,Gibbon:The Dedline and Fall of The RomanWmpire, vol.I.I,W-S press,New York, 1960.p.380.

(2) G.Borraclough:The Medieval Papacy,p.18.
سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، جـ1،ص63.

(1) J.B Bury:(The Cambridge Medieval History).Vol.II, Cambridge University press, London,1980,p.142

الكثير من الامتيازات التي حصلت عليها الكنيسة كانت في العصر الميروفنجي(500-753) وهو اكثر العصور التي تحصلت فيه الكنيسة الغربية على الامتيازات والهبات والعطايا المختلفة[1]. كذلك فإننا نجد ان الإمبراطور قسطنطين(306-337) منح لكنيسة روما من خزينة الدولة الكثير من الأموال مما أدى إلى تكديس الكثير من الثروات بهذه الكنيسة وكذلك هناك مصادر أخرى لثروة الكنيسة التي تاتي من دخل الممتلكات والهبات التي يمنحها الأباطرة والأفراد الاثرياء[2].

لقد حازت الكنيسة الغربية على العديد من الامتيازات من الحكومة بخاصة فقد كان لها الحق في استلام الميراث وإعفاء الكهنة من الضرائب، هذا فضلاً عن ان رجال الدين كانوا يقضون في حل المنازعات بين المسيحيين ويتخطون المحكمة الإمبراطورية بخاصة في الفترة الأولى من تاريخ المسيحية عندما كانت تعاني من الاضطهاد. وبعد الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية في أواخر القرن الرابع(392) م سمح القانون للاساقفة بان يعملوا كقضاة ويفصلوا في كل المنازعات الدينية التي يكون المسيحيون طرفاً فيها[3] و لم يلبث أن ازداد نفوذ الاساقفة تدريجياً في دوائر نشاطهم بفضل مكانتهم الدينية من جهة، وما جمعوه من صدقات وهبات من جهة أخرى، لا سيما وان الصدقات التي جاد بها الخيرون وكان يتم توزيعها على الفقراء والمحتجين عن طريق الأسقف نفسه، مما اوجد طبقة من سواد الفقراء مستعدة لتنفيذ مشيئة رجال الدين[4].

نتيجة لانقسام الدولة الرومانية في أواخر القرن الرابع الى قسمين شرقي وغربي وظهر التباين واضحاً بين الدولتين الرومانية الشرقية والغربية، حتى انتهى الأمر في أواخر القرن الخامس بسقوط الدولة الغربية، في حين برزت الدولة الشرقية وعاصمتها القسطنطينية في صورة القوة العظمى للدولة المسيحية، وقد انعكس ذلك على وضع الكنيسة في كل من الجانبين، ففي الغرب كان على الكنيسة ان تقف على قدميها ليس فقط كهيئة دينية، ولكن كحارس للحضارة الرومانية، وفي كثير من الأماكن كمؤسسة سياسية وعسكرية، حيث كان الرهبان يحكمون المدن والأحياء، ويشرفون على العدالة، ويوزعون الطعام على المساكين، ويرأسون الجيوش المحلية . والواقع أن المؤرخ الذي يحاول- بالرغم من الضباب الذي يخيم على العصر- أن يلتمس طريقة

---

(1 J.B Bury: Cam. Med. Hist, vol. II,p.144

(2 G.Barraclough:The Med.Papacy,.p20

(3 B.Tierney:Western Europe nin The Middle Ages,3rb,ed:Alfred A.Knopf,New York,1978,p.29.

سعيد عاشور: أوروبا الوسطى جـ1، ص 63

4 سعيد عاشور: أوروبا الوسطى جـ1، ص 63

برتراندراسل: تاريخ الفلسفة الغربية،ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة 1956،ص43.

للوصول إلى نشأة الكنيسة الرومانية لن يصادف سوى جزءاً ضئيلاً من الحقيقة وقدراً كبيراً من الخيال[1]. هنا نلاحظ أن تدخل الكنيسة في شؤون السلطة الزمنية اخذ يستفحل بازدياد ضعف الإمبراطورية الرومانية واضمحلالها، حتى انتهى الأمر بان حلت الكنيسة محل الإمبراطورية عندما غربت شمس الأخيرة في غرب أوروبا. ومما ساعد الكنيسة على تحقيق ذلك أنها حذت حذو الإمبراطورية الرومانية في تنظيمها، حتى أصبح الأساقفة يضطلعون بعبء التنظيم الإداري في أقاليم الإمبراطورية، فضلا عن نهوضهم بمهام التنظيم الكنسي على أن التيار الذي انساقت فيه الكنيسة، ومحاكاتها لنظم الحكومة الإمبراطورية تطلب قيام شخصية عظيمة على رأسها، كما كان للإمبراطورية إمبراطور يتزعمها، وسرعان ما وجدت الكنيسة الغربة ضالتها في شخص أسقف روما الذ تحول كرسيه إلى بابوية لها السيادة العليا الكنيسة في مختلف بلدان العالم الغربي[2]، وإذا كانت الكنيسة هي الوريثة الشرعية للإمبراطورية الرومانية في الغرب، فان لهذا القول مغزاه ودلالته ، ذلك أن تلك الكنيسة قامت برعاية أتباعها في فترة القلق والاضطراب التي صاحبت غزوات البرابرة على الإمبراطورية، وكان رجال الدين أنفسهم المحتكرون للعلم والتعليم والتوعية، بالإضافة إلى إصدار الأوامر والتشريعات، ولا شك في ان هذه الامتيازات عززت نفوذ الكنيسة وجعلتها تحمل لواء القيادة في غرب أوروبا[3]هذا بالإضافة إلى أن الكنيسة كانت تتمتع بقوة معنوية كبيرة، حيث انها الجهة التي تقوم بعملية التعميد[4]. كذلك كان للكنيسة الحق في توقيع العقوبات في كافة المخالفات المهمة كالربا وممارسة السحر والشعوذة يضاف الى ذلك قيام رجال الدين بإجراءات الزوج والاستماع إلى وصية المحتضر وكذلك الصلوات على الموتى.

من أسباب قوة الكنيسة في غرب أوروبا في تلك العصور سيطرتها على منح رخص للحجاج لزيارة الأماكن المقدسة، حيث أن الذي يشرع في القيام بهذه الرحلة بدون الإذن من كنيسة روما، كان يخاطر بفقدان العديد من المنافع التي كفلتها الكنيسة للحجاج مثل حماية منزله وممتلكاته لمدة ثلاث سنوات، مع إيقاف

---

1) A.J.C.Kerr:The Crusades, New York,1966.p.13
سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص 65-66.

2) سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص 62-65.،65-66.

3) La Grande Encyco90ed8e:4Lip( Larousse,paris,1972),p.2416.
ل.م هارتمان: الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة د. جوزيف نسيم، دار النهضة العربية، بيروت1981.ص23.
عادل زيتون: العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني، ط1، دار دمشق 1980، ص90-100.

4) ج.جكولتون: عالم العصور الوسطى، دار النهضة العربية بيروت1981،ص101 عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 99-100.

مايكون قد تعرض له من قضايا مدنية وجنائية لحين عودته ويحصل قبل سفره على خطاب من راهب الأسقفية التابع لها بحسن ضيافته وإكرامه في كل البيوت الدينية التي تقع في طريقه إلى الأماكن المقدسة[1]

كانت الكنيسة تشرف على إنشاء الطرق وصيانتها حتى أعلنت ان رعاية الطرق تعتبر من أعمال البر والتقوى التي يجازي صاحبها عليها بحسن الثواب والغفران، بالضبط كالإحسان والحج. لذلك وجدت من بين المنظمات الدينية في غرب أوروبا في العصور الوسطى منظمة عرفت باسم "**إخوان الجسر**" الغرض منها المساهمة في بناء الجسور على الأنهار وصيانتها[2].

على الرغم من ازدهار القانون الكنسي ابتداءً من القرن الثاني عشر بوصفه نظاماً شرعياً، الا انه لا يمكننا القول ان الكنيسة كانت تعيش بدون قانون حتى ذلك الوقت، حيث كان رجال الكنيسة في غرب أوروبا ينظمون أمورهم ويديرون شؤونهم على أساس القواعد والأحكام المشتقة من مصادر دينية مختلفة، منها الكتاب المقدس، ورسائل البابوات، وقوانين المجالس الكنيسة ، هذا بالإضافة إلى القانون الروماني وتقاليد الكناس المحلية، وكتابات الآباء المقدسين الأوائل[3]، وهم الذين كانوا على معرفة بالفلسفة الكلاسيكية- لاسيما إعلام الأفلاطونية الحديثة- فأفادوا منها في تبرير أرائهم والتدليل عليها وتقديم العقائد المسيحية في صورة علمية مقنعة يتقبلها المثقفون، مما أدى إلى بروز الكنيسة في الغرب وازدياد قوتها نتيجة لهذه القواعد التي ساعدتها على إدارة شؤونها، وتقديم العون لمن يلجأ إليها سواء كان فرداً أو مؤسسة دينية[4].

هكذا صارت الكنيسة – بفضل كل ذلك – في غرب أوروبا في العصور الوسطى سلطة قوية تدعو إلى الوحدة [5]وقد ظهر في تلك العصور رأي ينادي بقيام سلطة عالمية واحدة تضم ليس مواطني بلد واحد فحسب ، وإنما كافة شعوب الغرب، الذي هدد نفوذ السلطة العلمانية، حيث غدت سلطة الحاكم مقيدة

---

([1]) K.M.setton:Ahist, of The Crusadws, vol, 4, UNiv, of Wisconsin press.1977.p.38.39.

([2])سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى ، ج، 2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة1976ز319.

([3]) هم:
1 - القديس كلمنت السكندري القرن الثالث.
2 - اوريجن 185-254م.
3 - جيروم331-420 تقريباً.
4 - امبروز340-387Ambrose.
5 - اوغسطين 354-430Augustin.
سعيد عاشور: أوروبا جـ1 ، ص 65.
عبد القادر اليوسف: العصور الوسطى الأوروبية، ص60-69.

([4]) N.Z. acour:An Inroduciton To medieval Instituions,2ED.St.M. presss,New York,1976,p.136.
سعيد عاشور: أوروبا جـ1 ، ص 65.

([5])س.ورن هلستر: أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1988،ص225.

داخل حدود إقليمية ضيقة. أما الكنيسة فقد ازداد مركزها قوة ومتانة بعد أن تعددت وظائفها الروحية بحيث لا يستطيع أي فرد آخر ممارستها[1]، كان المسيحيون الغربيون يعتقدون أن كنيسة روما انفردت دون غيرها من سائر الكنائس، بأن منشئها– هو بطرس الرسول– أعلى الرسل مكانة في نظر المسيح وأتباعه[2]. حيث جاء في إنجيل متى الإصحاح 16 فقرة نصها" أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي[3]". وهكذا غدت الكنيسة قوة عظيمة في غرب أوروبا في تلك القرون، حتى إن كل من كان يخالف تعاليمها كان يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب، واستغلت الكنيسة تلك السلطة في مواجهة معارضيها وبخاصة في ميدان السياسة. كذلك تحكمت الكنيسة بحكم الظروف التي أحاطت بنشأتها– في أواخر العصور القديمة وأوائل العصر الوسيط– في مقدرات الأفراد وفي حياتهم الخاصة والعامة، فكان بيدها الأمر والنهي وعليهم السمع والطاعة[4].

بالإضافة إلى الجانب الديني، فإن علينا أن نلاحـــظ أن الكنيسة الغربـــية ورثت تراث الحضارة الرومانية، حتى أصبحت أعظـــم أداة حضارية في غـــرب أوروبا في العصور الوسطى، بفضل إشراف البابا جريجوري العظيم (590-604)، وبفضل مساعدة الميروفنجيين والكارولنجيين من بعدهم. هذا عدا جهود ذلك الجيش الضخم من رهبان الأديرة ورجال البعثات الدينية التبشيرية، الذين كافحوا في سبيل نشر المسيحية الكاثوليكية. على أن اثر الكنيسة لم يقتصر على نشر المسحية والحضارة الرومانية حتى نهر الألب واسكتلندا فحسب، ولكنها أسهمت بجهودها الفعالة في تنظيم الحياتين الاقتصادية والاجتماعية في غرب أوروبا، واليها يرجع الفضل في إقرار السلام والأمن، والقضاء على كثير من مظاهر الفوضى التي غرقت فيها أوروبا غداة سقوط الإمبراطورية الغربية في أواخر القرن الخامس. ومن ذلك أن الكنيسة حاربت مبدأ الأخذ بالثأر وعملت على إنشاء المستشفيات والملاجئ، كما عملت على حماية المرأة والمحافظة على حقوقها الحيوية. كل ذلك بالإضافة إلى نشر الحضارة والتعليم بين المجتمعات المختلفة بين سكان غرب أوروبا، وذلك عن طريق المؤسسات الدينية العديدة كالأديرة والكاتدرائيات[5]. لقد كان لتعاليم الكنيسة الفضل في تحويل نسبة كبيرة من من حروب الحدود إلى حروب صليبية تستهدف نشر المسيحية والقضاء على غير المسيحيين أو الدفاع عن أماكن مقدسة[6].وتعتبر الكنيسة الغربية القوة الأساسية التي استوعبت ملتمس الإمبراطور الكسيوس

---

[1])ل.م.هارتمان: الدولة والإمبراطورية،ص120.
[2])توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ط1، الزهراء للإعلام - الغربي ، القاهرة1991،ص56.
[3])انجيل متى: إصحاح 16.8*) ؛ سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص67
[4])جزوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين، ص41.
هارتمان: الدولة والإمبراطورية، ص48-61.
سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى جـ1،ص160-168.
[5])سعيد عاشور: أوروبا حـ 2،ص11-12.
[6])ه.و. ديفز: أوروبا في العصور الوسطى ط1، ترجمة عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، الاسكندرية1911،ص183.

كوومنين(1081-1118م)، واستجابت لطلب المساعدة للقيام بحرب مقدسة ضد المسلمين واسترداد الأرض المقدسة منهم، وبذلك كانت الكنيسة الغربية هي القوة التي تزعمت الحرب الصليبية[1]

[1])أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص20-21.

## ب- البابوية[1] وهيمنتها على المجمع المسيحي الغربي

إن الاتجاه الذي سارت فيه الكنيسة، لمحاكاة أسلوب ونظم الحكومة الإمبراطورية، في حاجة الى شخصية قوية على رأسها، مثلما كان للإمبراطورية إمبراطور. ويمكن لنا ان نلاحظ اختلافاً بيناً بين الشرق والغرب، حيث في الشرق خضعت الكنيسة للأباطرة الذين عظم تدخلهم في الشؤون الكنيسية، وظهر ذلك فيما بين القرنين السادس والثامن، بحيث اخذوا يتدخلون في شؤون الكنيسة المختلفة. وهكذا أصبح من الاستحالة الحد من تدخل الإمبراطور البيزنطي في شؤون الكنيسة الشرقية، الأمر الذي جعل الإمبراطور يمثل نوعـــاً من القيصرية. ولقد وضع أساس هذه السياسة الإمبراطور قسطنطين الكبير (306-337)منذ الاعتراف بالديانة المسيحية كدين من بين الأديان في الإمبراطورية سنة (313م). ولقد سار على نفس المنوال خلفاء قسطنطين. واتضحت هذه السياسة عندما أخذ الأباطرة على عاتقهم دعوة المجامع الدينية لبحث مختلف المشاكل المتعلقة بالديانة المسيحية. أمافي الشق الغربي، فإن العلاقة بين الدولة والكنيسة اختلفت عن السياق الشرقي كثيراً، إذ أن ضعف الدولة لم تستطع معه فرض السيطرة على الدولة والكنيسة معاً، كما هو في الشق الشرقي من العالم المسيحي، وسرعان ما وجدت الكنيسة الغربية ضالتها في شخص أسقف روما، الذي تحول كرسيه إلى بابوية لها السيادة على الكنيسة في مختلف بلدان العالم الغربي[2].

كانت العقبة أمام ظهر السلطة البابوية، هي موقف الحكومة الإمبراطورية تجاه الكنيسة، وهو موقف اتسم بالعداء ، حتى بعد ان تخلى الإمبراطور عن اللقب الوثني" الكاهن الأعظم" ، وذلك عام 379م[3]، و لم تكن هذه العقبة الوحيدة التي واجهت الكنيسة والمسيحية لحملة واسعة من الاضطهاد، و لم تصدر هذه الحملة عن أباطرة عاديين فحسب، بل الكثير من هؤلاء الأباطرة كانوا من المصلحين،حيث ان الإمبراطورية تخوفت من الاجتماعات السرية التي دأب المسيحيون على عقدها بين حين وآخر. هذا فضلاً عن معارضة المسيحية لتأليه الإمبراطور، في حين ظهرت المسيحية ممثلة صورة المساند للفقراء، مما جعل منها ثورة اجتماعية، ولكن

---

[1]) انظر: ملحق رقم(3).

[2])سعيد عاشور: أوروباجـ1،ص65-66

G.Barraclough: The Meduevak,p.20-22.

[3])سعيد عاشور : أوروبا جـ1، ص55.22

G.B Barraclough: The Meduevak,p.20.

يلاحظ من خلال دراسة مرحلة الاضطهاد، إن هذا الاضطهاد لم يوقف تيار المسحية،بل حدث العكس، إذ ازدادت المسحية والكنيسة- وبالتالي البابوية- انتشاراً وقوة[1].

والواقع أن البابوية كانت أعظم القوى التي ساهمت في تشكيل أوروبا في العصور الوسطى، وطبقاً لمذهب الكنيسة الكاثوليكية الذي تم تعريفه وتحديده في " مجلس الفاتيكان" في سنة 1870م، فإن البابوية تدين بهيئتها وإطارها للقديس بطرس وخليفته الحبر الأعظم بابا روما، الذي ورث عنه السلطة العظمى التي منحها إياها المسيح . على أن ممارسة هذه السلطة، كما أوضحها أحد مشرعي القانون الكاثوليكي في القرن التاسع عشر، كانت خاضعة دائماً لظروف الزمان والمكان، حتى ان تاريخ الأسقفية البابوية يوضح أنها تأسست ببطء ، وإنها مرت بمراحل أليمة من القمع والاضطهاد، فكان لابد من ان تمر عدة قرون على مولدها النظري منذ أيام " البابا ليو الاول" (440-461م) قبل أن تترجم النظرية البابوية الى صورة عملية[2] وعندما نقول إن البابوية هي التي كيفت وجه أوروبا العصور الوسطى، فإننا نعني أنها كانت في تلك العصور تشق طريقها في التطور من بدايات مظلمة، لأن الكنيسة كانت عندئذ تمثل مجتمعاً صغيراً مضطهداً في عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وحتى قبل القرن السادس، كان الغرب يطلق لقب بابا ليعبر عن ذلك الرجل ذي الرعاية الأبوية الذي يتمثل في كل أسقف. ولكن لم يلبث ان استرد أسقف روما هذا اللقب وحده حتى انه في سنة 1075م كان من الضروري بالنسبة لجريجوري السابع أن يؤكد أن العالم له بابا واحد فقط ، كما حدث كثير من التطورات التي ساهمت في رفع مكانة البابوية، وليس من الواقع في شيء ان نتصور ان البابوات المتعاقبين اتبعوا سياسة ثابتة مترابطة الحلقات استهدفت هدفاً واحداً واضحاً يمكن تصوره، ومع ذلك فإن هذه الحقيقة لا تحط من قدر البابوية. فعلى مدى ستة قرون او أكثر ظلت البابوية قوة عظيمة هائلة شكلت مصير اوربا[3].

إن لفظة البابا(Papa) لاتينية الأصل وتعني الأب، ويمكن إطلاقها على أي فرد من رجال الكنيسة، ولكن الغرب الأوروبي وجد ضالته في شخص أسقف روما الذي تحول كرسيه إلى بابوية لها السيادة العليا على

---

[1])سعيد عاشور: أوروبا جـ1، ص50-52؛ توفيق الطويل : قصة الاضطهاد، ص47- 78. E.Gibbon:The Declin, and fall, Vol.I,p.355
نورمان.ف. كانتور: العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم؛ عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة1993،ص61-62.

([2] G.Barraclough: The Medieval Papacy,p.9,26.

([3] G.Barraclough: The Medieval Papacy,p.9,10

الكنيسة في مختلف بلدان العالم الغربي[1]. والواقع أن هناك عوامل عديدة هيأت لأسقف روما هذه الأهمية والزعامة على غيرها من أسقفيات الغرب في تلك المرحلة، ذلك انه من المعروف ان أهمية الأسقف تتناسب عادة والأهمية السياسية والاقتصادية للمدينة التي يقوم فيها كرسيه الأسقفي[2] ومن بين أساقفة الغرب برز أسقف روما ، ليحظى بمكانة خاصة ممتازة مستمدة لا من مكانة مدينة روما فحسب، وإنما ايضاً بوصفه خليفة بطرس الذي كرمه المسيح تكريماً لم يحظ به غيره من الرسل[3]. وهذا معناه ان كنيسة روما التي أسسها القديس بطرس، لم يكن لها مثيل في الغرب الأوروبي، وهكذا استطاعت كنيسة روما أن تتدخل مع السلطات الزمنية لصالح الكنائس الأخرى، كما استطاعت بفضل موقعها الجغرافي أن تجمع ثروة طائلة ساعدت بها الكنائس الفقيرة. ولا شك في ان التقدير والاحترام اللذين حصلت عليهما الكنيسة الرومانية جعلها تقف دون منافس، ومن ذلك الوقت بدأت تأخذ وضعها وهيبتها الدينية [4].

والواقع أننا لانعرف عن اساقفة روما في القرنين الاول والثاني أكثر من أسمائهم ، و لم يكن ذلك ممكناً إلا بعد عهد قسطنطين (306-337م) ، عندما أخذت المراجع تشير إلا أن بعض البابوات الذين لعبوا دوراً فعالاً في توجيه سياسة الكنيسة. ومن هؤلاء البابا داماسوس الأول(336-384م)، الذي كتب مؤلفاً استعرض فيه مكانة كرسي روما الأسقفي، وأكد سيادة البابوية وسموّها.كذلك عهد هذا البابا إلى جيروم (331-420م تقريباً) ، بترجمة الإنجيل إلى اللاتينية. أما خليفته البابا سير كيوس(384-399م)، فترجع إليه أولى المراسيم البابوية التي وصلتنا، كما بقيت من عهده بعض خطابات رسمية تناولت مسائل معروضة على أسقف روما للبت فيها، وبعد ذلك اشتهر البابا ليو الاول او العظيم (440-461م) الذي تم في عهده الاعتراف بسيطرة البابوية على كافة الكنائس المحلية في الغرب، وفي سنة 455م اصدر الإمبراطور فالنشيان الثالث(425-455) إمبراطور الغرب مرسوماً يقضي بخضوع جميع اساقفة الغرب للبابا. وهنا نشير إلى وجود

---

[1])سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص68.
G.Barraclough:The Medieval Papacy,p.7,13.

[2]) سعيد عاشور: أوروبا جـ1، هامش ص68.
نورمان كانتور: العصور الوسطى، ص 60-62.
محمود عمران: معالم تاريخ أوروبا، ص 55.

[3])
N.Zacour:An Introduction,p.172-173.
سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص67.
محمود عمران : معالم تاريخ أوروبا ، ص154.
G.Barraclough: The Medieval Papacy,p.14-18.

[4]) سعيد عاشور:أوروبا جـ1، ص 68-69.
نورمان كانتور: العصور الوسطى، ص61.
ج.ج كولتون: عالم العصور الوسطى، ص 108.

عوامل أخرى ثانوية ساعدت على تحقيق سيادة البابوية، منها ازدياد الالتجاء إلى اساقفة روما، لاستئناف الأحكام القضائية التي أصدرتها لمجامع الإقليمية او صغار الأساقفة، مما جعل أسقف روما يبدو بمثابة الحاكم الأكبر والسيد الأعلى، ومن هذه العوامل أيضاً عظم ثروة أسقفية روما. وتعاقب عدد من ذوي الشخصيات القوية على كرسيها الأسقفي مثل ليو الاول (440-461م)، وجريجوري الأول(590-604م)، وهذا فضلاً عن سقوط الإمبراطورية في الغرب سنة 476م، ترك البابا وحيداً لا ينافسه سيد سياسي في الغرب، في الوقت الذي كان بعيداً عن سلطان إمبراطور القسطنطينية ونفوذه في الشرق[1].وفي تتبعنا لمسيرة البابوية في ذلك الدور الاول، نجد ان البابا جلاسيوس الأول(492-496م) لا يعد بالمعنى الدقيق من آباء الكنيسة، وان كان من حقه المطالبة بمكان له بينهم، حيث انه قام بعدة أعمال منها إيجاد أسلوب قانوني لصياغة العلاقة بين البابوات والحكام العلمانيين في إطار مسيحي واحد، وكذلك قام هذا البابا برعاية الكنيسة والمسيحيين في روما أثناء فترات غزو البرابرة[2].

الواقع ان البابوية اتخذت صبغتها العالمية القوية التي ميزتها طوال العصور الوسطى في عهد البابا جريجوري الاول(590-604م)، ففي غاليا كانت رغبات جريجوري الأول تقابل بالترحاب والقبول من ملوك الفرنجة، حتى أصبح لهذا البابا كلمة مسموعة في جميع أنحاء غاليا، حقيقة ان جريجوري لم يتردد في معونة الإمبراطورية البيزنطية لإخضاع أساقفة اليريا، او تأديب هراطقة الدوناتين [3] في شمال أفريقيا، ولكن بلغ بهذا البابا أنه في الوقت الذي كان أحوج ما يكون إلى مساعدة الإمبراطورية البيزنطية، لم يتراجع في تهديد الإمبراطور موريس(582-602م)، عندما لجأ الأخير إلى تقييد نفوذ الأديرة وتحريم دخولها على الرجال القادرين على الخدمة العسكرية . وهكذا استطاع جريجوري، بفضل تمسكه بحقوق البابوية وهيبتها، أن يضرب مثلاً عالياً احتذاه خلفاؤه من البابوات، ويكفي انه ترك لخلفائه بناءً بابوياً شامخاً ونفوذاً روحياً واسعاً وسلطة زمنية قوية، كما حقق للمنصب البابوي قسطاً من السمو لم يسبق أن حظيت به البابوية من قبل[4].

---

[1])سعيد عاشور: أوروبا، جـ1، ص68-69.
نورمان كانتور؛ العصور الوسطى المبكرة، ص 91.
G.Barraclough: The Medieval Papacy,p.26

[2]). E.A.Synan:The Popes and The Jews in The Middle Ages, New York,1965,p.31
Cambridge Medieval History, vol.5,p-7,1979.

[3])الدوناتية : ظهرت في شمال افريقية في اواخر القرن الثالث واشتد أمرها في القرن الرابع. نسبة إلى دوناتوس وجوهرها الصراع بين الاستقراطية الحاكمة والمحكومين. واتخذت الكفاح الطبقي واستمرت ثورتهم ثلاثة قرون.

[4])سعيد عاشور: أوروبا جـ1ص 161-164
G.Barraclough: The Medieval Papacy,p.26

في أواخر القرن السادس شهدت ايطاليا مرحلة من الصراع بين ثلاث قوى ممثلة في: البيزنطيين واللمبارديين والبابوية. وكانت البابوية تنمو في تلك الفترة تدريجياً لتبدو في صورة قوة سياسية دينية في ايطاليا حتى أصبحت الكنيسة البابوية اكبر مالك للأراضي في ايطاليا في تلك المرحلة، وتم ذلك نتيجة الحق الذي تمتعت به الكنيسة منذ عهد قسطنطين الكبير في حيازة الممتلكات، وتزايدت هذه الممتلكات عبر السنين بعد أن دأب بعض الأغنياء على أن يوصوا لها بالأموال، وما كان يهبه لها أشراف روما، فضلاً عن اتجاه صغار الملاك إلى وضع أنفسهم تحت حماية البابوية، وهكذا أخذت البابوية توسع الملاك إلى وضع أنفسهم تحت حماية البابوية، وهكذا أخذت البابوية توسع نفوذها المادي والأدبي في إيطاليا[1]. وكان ان بدأ أسقف روما مشواره الطويل لتحقيق ثلاثة أهداف كبرى: أولها تأكيد سمو البابوية وسلطتها العالمية وفق النظرية البطرسية، ثانيها تنظيم الكنيسة المسيحية، وثالثها فرض الثقافة المسيحية اللاتينية على الممالك الجرمانية في الغرب الأوربي[2].

وهكذا غدا البابا الجالس على الكرسي الرسولي بروما، هو الرئيس الديني الأعلى لكافة المسيحيين في الغرب. وكان البابا يساند أي ملك من الملوك ينهض للدفاع عن المسيحية. ولا شك في ان البابوية كانت تنظر الى التقدم الإسلامي في أوروبا الغربية نظرة تخوف وألم، وإشفاق على مصير المسيحيين، حتى إذا كانت معركة بلاط الشهداء سنة (114هـ/732م)، وهي المعركة التي أوقف فيها شارل مارتل تقدم المسلمين في جنوب فرنسا، عندئذ انتعشت البابوية واهتزت أوروبا النصرانية فرحاً، وأضفت على شارل مارتل (714-741م) مختلف نعوت الإجلال والبطولة، واعتبرته الكنيسة الكاثوليكية حامياً للنصرانية ومنقذاً لها من الانهيار. ومنذ ذلك الوقت تقريباً اكتسبت الحرب ضد المسلمين صفة الحروب المقدسة. ولما خلف شارل مارتل ابنه بيبن القصير(741-768م) على زعامة الإفرنج، تم الاتصال سراً أوائل سنة 753 بين البابا ستيفن الثاني(752-757م) وبيبن القصير، وترتب على ذلك أن تم اللقاء بينهما في غاليا. وفي يوليو 754م أعاد البابا تتويج بيبن بيده، فحارب بيبن اللمبارد من اجل البابوية ومنح الأراضي التي افتكها منهم للبابوية[3].

---

[1])عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص95-96.
توفيق الطويل : قصة الإضطهاد الديني، ص 91-92؛ سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص154-160.
[2])هارتمان : الدولة والإمبراطورية، ص25-26.
عادل زيتون؛ العلاقات السياسية، ص 101.
[3]) هـ.ا.ل فشر: تاريخ أوروبا ط 6، ترجمة محمد زيادة، دار المعارف بمصر، القاهرة 1976، ص 68-69؛ محمد العمروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الكتب الشرقية، تونس 1954،ص138.

ومن الثابت أنه بإحياء الإمبراطورية الرومانية الغربية في مستهل القرن التاسع وتتويج شارلمان(771-814م)في سنة 800 إمبراطوراً، كانت البابوية في روما قد ثبتت دعائمها، لا سيما وأنها بهذا العمل قطعت الرباط الواهي الذي كان يربطها بالإمبراطورية البيزنطية، في الوقت نفسه قوت الرباط الذي كان يربطها بمملكة الفرنجة وأكسبت هذا الرباط طابعاً دينياً مقدساً. هذا فضلاً عن أن الطريقة التي تم بها تتويج شارلمان جعلت التاج الإمبراطوري يبدو في صورة منحة من البابا، وهي العقيدة التي أصبح لها شان كبير في التراع بين الإمبراطورية والبابوية فيما بعد، ولم يبق أمام البابوات إلا مواصلة الجهود التي كان قد بدأها جريجوري العظيم[1]. وفي نفس الوقت الذي كانت البابوية تنفذ سياستها الاستقلالية عن الدولة البيزنطية، كانت تواصل العمل على تحقيق الشق الثاني في سياستها، وهو العمل على فرض نفوذها الديني الدنيوي على الغرب المسيحي بأكمله، حتى غدت مع مرور الوقت قوة دينية ودنيوية هائلة، بحيث أمكنها أن تسيطر على مقدرات الأفراد الخاصة والعامة، وغدا لها الأمر والنهي وعلى الجميع لها السمع والطاعة، ومن يحاول الخروج عليها يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب من حرمان ونقمة ولعنة وقطع[2].

ولاشك في أن انهيار الإمبراطورية الكارولنجية في القرن التاسع قد شجع على تحقيق أهداف البابوية في السيادة،وهكذا أصر البابوات على أن الكنسية في روما هي الكنيسة الأولى، وأن رأسها وهو البابا هو نائب القديس بطرس، المنبع الرئيس للقانون الكنيسي، وقد أكد البابا نيقولا الأول (858-867م) أن روما ليست فقط زعيمة الكنائس المسيحية كلها، ولكنها أيضا لها السيادة على الأرض والدنيا كلها، وأن البابا هو سيد الأرض كلها ويعمل نيابة عن الرب، وبذلك لم يبق للحكام الدنيويين إلا مجالاً ضيقاً يتحركون فيه، فيعملون

---

سعيد عاشور: أوروبا جـ1، ص 168-193،170-194.
حسين مؤنس:تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ص 149-150.
عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 102.
حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957،ص 246-247.

[1]) هارتمان : الدولة والإمبراطورية ص59،47.
سعيد عاشور: أوروبا جـ1، ص 207.
محمود عمران: معالم تاريخ أوروبا، ص 207.

[2]) سعيد عاشور: أوروبا جـ1، ص 160-334،160-339.
هارتمان؛ الدولة والإمبراطورية، ص48.
جوزيف نسيم: العرب والروم اللاتين،ص41.

كحماة للكنيسة، خاضعين لقوانينها. وكانت ادعاءات نيقولا الأول تستمد قوتها من مجموعة المستندات التي ظهرت في القرن التاسع، هي عبارة عن مجموعة رسائل بابوية وبعض القرارات التي صدرت عن مجالس سابقة بعضها أصيل والآخر مزور، وهي تمجد المنصب البابوي وتؤكد سلطة البابوية على روما والمناطق المحيطة بها زمن البابا حنا العاشر( 914-928م)[1] . وقد وصف البابا بأنه خادم خدام الرب، ومعنى ذلك ان البابوات حرصوا على نشر السلام، وهو ماعرف باســـم "سلام الرب"Peace of God"،كما تصدى البابوات لمنع إيذاء الكهنة والرهبان والراهبات، ثم أضيف إلى هذه القائمة الرعاة وأطفال المدارس والتجار والمسافرون، وحرم دخول الملاجئ والأديرة على الرجال المسلحين، وكذلك الأراضي المحيطة بأبراج الكنائس لمسافة من 30 إلى 60 خطوة، وفي أيام الآحاد كان كل الناس يذهبون إلى الكنائس ويعودون منها امنين[2].

ولم يلبث البابا ليو التاسع (1048-1054م) –ومن جاء بعده- أن أضفوا على البابوية ومنصبها هالة من القوة ولنفوذ تتصف بالعنف، ذلك أنه جعل من نفسه الحاكم المطلق الذي يعتبر الدنيا كلها وطناً واحداً . ونظر ليو إلى البابوبة ، لاكما نظر إليها أسلافه، مجرد منصب محدود بوظيفة أو بمكان، وانما اعتبرها مؤسسة عالمية ذات سلطان مطلق، وسموّ غير محدد واستقلال تام، وتفويض الهي بالرقابة الروحية والإصلاح والتوجيه إلى الخير، وبوحي من هذه العقيدة عين الكرادلة من الأجانب غير الايطاليين، وعقد المجامع الدينية في فرنسا وألمانيا، وحالف النورمان في جنوب ايطاليا، وأنفذ القصاد البابويين في بعثات تأديبية إلى أنحاء أوروبا. ثم حذا خلفاؤه حذوه في السير على مقتضى مذهب السموّ البابوي المطلق[3].

حقيقة إن الكنائس المحلية في مختلف بلاد غرب أوروبا ظلت تنظر إلى البابا على انه زعيمها الروحي، ولكن نفوذ البابوية على هذه الكنائس لم يعد أن يكون اسمياً . فكثير من البابوات في الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والحادي عشر أهملوا توجيه الكنائس ورجالها توجيهاً فعلياً رشيداً، ولم يفكروا في دعوة مجامع دينية عامة، وتركوا مهمة هذا التوجيه ودعوة المجامع إلى الملوك في كل بلد من البلدان، حسب مقدرة هؤلاء الملوك

---

(1) N.Zacour: An Introduction to Medieval,p.177-179.

(2) H.Lamb:The Crusades:Iron men and Saints, Gardn City,New Ylrk,1930,p29-32.

(3) هـ.أ.ل. فشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص145-146.

ومقدار سيطرتهم على الكنيسة في بلادهم، مما أدى إلى تفكك الكنيسة وعدم وجود رابطة تربطها في غرب أوروبا .ومن الواضح أن سيطرة الحكام العلمانيين لم تؤد فقط إلى تفكك الكنيسة في تلك الحقبة، وإنما أدت أيضاً إلى انحطاط سلوك بعض رجال الدين، لان الحكام العلمانيين لم يهتموا عند ملء الوظائف الدينية باختيار مرشحين على خلق سليم، مما أدى إلى وصول بعض ضعاف النفوس إلى ارفع المناصب الكنسية[1] وقبل بداية مرحلة الإصلاح البابوي في منتصف القرن الحادي عشر، كانت هناك فجوة بين تصور البابوية للمجتمع المسيحي وواقع الكنيسة المعاصرة، وكانت سلطة البابوية على الكنيسة قد تزايدت إلى ابعد حد، وانكب الغيورون على محاولة الكشف عن أدلة جديدة لصالح القضية البابوية[2]. كذلك عمل البابا نيقولا الثاني(1059-1061م) على دعم الكنيسة إذ ذاك فعقد مجمعاً دينياً في روما سنة 1059 م لوضع القواعد اللازمة لاختيار البابوات، ومن هذه القواعد أن يتم اختيار البابا من بين رجال الدين في كنيسة روما نفسها، ويمكن اختيار البابا من كنيسة أخرى في حالة عدم واجد الشخص المناسب في كنيسة روما, وان يتم اختيار البابا عن طريق كرادلة روما وضواحيها السبع[3] ، ثم يجتمع هؤلاء الكرادلة مع بقية الكرادلة والأساقفة لإقرار الانتخاب وجاء في هذه القواعد أيضا مايقطع خط الرجعة على المتدخلين في شؤون الكنيسة، فقد ورد بها انه إذا تم اختيار بابا بغير الطريقة القانونية فانه يجب طرد مثل هذا البابا ومن ساعدوه من رحمة الكنيسة[4]. وفي سنة 1059م عقد البابا مع النورمان معاهدة تحالف تعهد فيها النورمان بمساعدة البابوية إذا تعرضت لخطر أو هاجم البعض أملاكها[5].

وهكذا بلغت الكنيسة مرحلة حاسمة في تاريخها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وهو العصر الذي يعرف بعصر البابا جريجوري السابع، أعظم بابوات العصور الوسطى، ذلك أن جريجيوري السابع وقف من الإمبراطورية موقفاً عنيداً لإجبارها على الاعتراف بسمو البابوية، وبان البابوية هي مصدر جميع السلطات السياسية والدينية[6] ومنذئذ سارت السياسة العليا في الدوائر الكنسية مرهونة بعبقرية راهب قميء دميم

[1]) سعيد عاشور: أوروبا جـ1، ص 338-339.

[2])س.ورن.هلستر:أوروبافي العصور الوسطى،ص179-191.
[3])سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص 710-712. نصوص وثائق رقم (6) مرسوم البابا نيقولا الثاني يلتحديد طريقة انتخاب البابوات.
[4]) سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص344-345.
[5])عادل زيتون: العلاقات السياسية،ص 104.
[6]) سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص717.

الوجه، بدا حياته فلاحاً خشناً في توسكانيا ومازال ينتقل في المراتب الدينية، ويدل على توقده سعة حيلته حتى عرفه التاريخ كردينالاً باسم "هيلد براند"" الشعلة المضيئة"،ثم عرف باسم جريجوري السابع حين تم انتخابه للكرسي البابوي 1073-1085م) ولا مغالاة في القول بأن التطورات السياسية الخطيرة التي شهدتها أوروبا منذ أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، ترجع في معظمها الى تأثير ذلك الرجل الصارم الذي لم يتزحزح عن رايه مرة قيد انملة، ونادى بصوت ملؤه الشجاعة، أن العالم بأسره دولة مسيحية واحدة، يسيطر عليها بابا، له العصمة،وله القدرة ، لايحده قانون، ولايزعه وازع، وهو الذي يخلع المسيئين من الملوك، ويشل عروشهم ويقطعهم من رحمة الكنيسة، ويحل رعيتهم من طاعتهم. وطالب ان تكون الكنيسة مستقلة في شؤونها تمام الاستقلال أي تصبح دولة داخل الدولة وأخيراً في سنة 1075م أثناء انعقاد المجمع الديني طالب بأنه ليس من حق الحاكم العلماني كائناً من كان، أن يقلد أحدا من رجال الكنيسة مهام منصبه الديني. وحاول استمالة النورمان جانبه في صراعه مع الإمبراطورية1. وفي عام 1074 قبيل الحروب الصليبية، صمم البابا جريجوري السابع على أن يقود حملة نحو الشرق، لنجدة الإمبراطورية البيزنطية ضد هجمات السلاجقة المسلمين[2]وفي نفس العام عقد البابا جريجوري مجمعا دينيا في روما واصدر عدة قرارات لإصلاح حال الكنيسة [3]وإذا كان جريجوري السابع قد عاد مع مرور الزمن إلى المغالاة في تفسير ماورد في كتاب "مدينة الله"[4] فقد طالب كحقيقة واضحة تعلن عن نفسها ، بان تكون الدولة التي أسسها المسيح لها السيطرة على تلك التي أسسها قابيل[5] وهكذا يكون باستطاعة البابا تعيين الأمراء وعزلهم [6]أما فيما يخص آراء البابا جريجوري الخاصة بعظمة بعظمة الوظيفة البابوية وسموا وسلطانها الروحي العالمي فهي المجموعة لتي تنسب إلى ذلك البابا والتي جمعت بعد وفاته بقليل حوالي سنة 1087م وتعرف هذه المجموعة باسم الإرادة البابوية أو الأوامر البابوية[7].

---

[1])فشر: تاريخ أوروبا ص146-147، هارتمان ، الدولة والإمبراطورية،ص49.
محمود عمران: معالم تاريخ أوروبا، ص 277.
Cam.Med,Histmvol.5.p.51-57:B.Tierney:Western Europe, 209,EA.Synan:The Popes and The jeews,p.67.

[2]) هانس ابرهادماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم،منشورات مجمع الفاتح للجامعات، طرابلس 1990،ص13.

[3])محمود عمران: معالم تاريخ أوروبا، ص 201.

[4])كتاب "مدينة الله" ألفه القديس أوغسطين، بدا في الكتابة413-426،وهو رد على الرأي القائل بن المسيحية سبب نكبة روما القديمة على يد القوط الغربيين عام 410.

[5])قابيل: هو القاتل الاول، الذي ورد عنه في التوراة انه مؤسس أول مدينة.. وردت الإشارة إلى الحادثة في القران الكريم
" فطوعت له نفسه قتل أخيه فأصبح من الخسرين" المائدة :30)
ويقول المؤرخ ياقوت الحموي: معجم البدلان بالمجلد الثاني ص 464:" .. فحسد قابيل أخاه اهابيل فأراد قتله،فاخذ حجراً وجعل يضرب به رأسه فقتله على جبل قاسيون..."
انظر: عبد الوهاب زينون: الحروب الصليبية هل انتها دار المعرفة دمشق 1992، ص19-20. كولتون: عالم العصور الوسطى ، ص266؛ العهد القديم – سفر التكوين –الإصحاح الرابع: 9و16.

[6]) ج.ج. كولوتون: عالم العصور الوسطى، ص272-273

[7]) سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص347-348.

كذلك اشتهر أوربان (1088-1099) بقدرته في الإدارة والتنظيم ونجح في أن يخضع لسيادته وأشرافه كل النظام الكنسي في فرنسا، موطنه الأصلي. أما في اسبانيا فكان لنفوذه السيادة العليا، وأخذت البلاد النائية في أوروبا تعترف رويداً رويداً بسلطتها الروحية، وقد أصر أوربان على ما التمسه جريجوري السابع من الدعاوي من أجل السيادة السياسية. وفي سنة 1095م أضحى أوربان الثاني السيد الروحي للعالم المسيحي في الغرب[1].

ولما كان تنفيذ سياسة البابوية الواسعة المدى يتطلب وجود جهاز إداري مركزي دقيق، فان الديوان البابوي سرعان ما أصبح أعظم جهاز إداري عرفه الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، ذلك ان الحكومة البابوية أخذت تتطور تطوراً بطيئاً تدريجياً حتى ظهر نوع من التخصص في وظائف البلاط البابوي، بمعنى قيام هيئات وجماعات من الموظفين اختص كل منهم بعمل إداري معين، وقد وجدت بالبلاط البابوي إدارة مالية قائمة بذاتها للنظر في شؤون الإيرادات والمصروفات[2].

وهكذا حققت البابوية انتصارات عديدة حاسمة على الدولة الرومانية المقدسة، سواء في منح الألقاب أو غيرها، وأصبح الأباطرة أمام البابا أذلاء لا يستطيعون رفع رؤوسهم، بعد أن خطا خطوات ضخمة في طريقه إلى السيطرة الدولية[3]. ولا شك في أن هذا التطور لم يتم دون تورط البابوية في بعض النواحي الدنيوية العلمانية، فلكي تكون سلطتها ناجحة وجب أن يكون البابوات رجال دولة أولاً ورجال الرب ثانياً ، ولتنفيذ حرب ما يجب أن يجمعوا الرجال والمال ويلجأون إلى الحيل بكل أنواعها من اجل هذا الغرض، وان ينتهزوا كل فرصة لوضع السياسة التي تناسب الظروف. كذلك كان يجب عليهم أن يكونوا على استعداد لمحاربة أساليب النفاق السياسي، وإذا دعت الضرورة لا مانع من الالتجاء إلى الكذب[4].

---

محمود عمران: معالم تاريخ أوروبا،ص294.

N.Zacour: An introduction,p.183-184.

[1]) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج1،ط1ن ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت153،1967.

E.A.SyynanThePopes amd The Jews,p.65

[2])سعيد عاشور: أوروبا جـ2، ص 220-221.

[3])د. عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب،ط1، ترجمة د. فليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة 1972،ص108.

([4] Cam. Med.Hist.Vol,5,p.321.

وفي الوقت الذي أخذت تتكاثر الالتزامات التي فرضتها البابوية على العالم المسيحي الغربي بوجه عام والهيئات الكنيسية والدينية بوجه خاص بلغ النضال أشده بين البابوية والسلطة الزمنية[1].

## جـ- العلاقة بين الكنيسة والدولة

لانعرف سوى القليل عن انتشار المسيحية في أوائل عصرها في الإمبراطورية الرومانية ولكن من الواضح انه مع نهاية القرن الثالث، كان عدد من المسيحيين قد ازداد بدرجة كبيرة ليشكلوا وزناً سياسياً في العالم الروماني، وبدأت المسيحية في اجتذاب أعداد من الطبقات العليا في المجتمع، بحيث غدا في كل مدينة رئيسية مجتمع صغير يرسه أسقف يساعده عدد من القساوسة والشماسة. وقد ردد الاساقفة الذين يعتبرون خلفاء الحواريين الأوائل أن المسيح لم يأمر أتباعه بمهاجمة سلطة الدولة، وإنما قال" أعطوا لقيصر ما لقيصر"[2]، على انه حدث بعد اعتناق الأباطرة للمسيحية ان ظهرت على المسرح عدة مشاكل، لعل أخطرها مشكلة تحديد العلاقة بين الدولة والكنيسة، التي بدأت تظهر منذ القرن الرابع، وازدادت وضوحاً عندما اخذ المسيحيون يأملون من الدولة حمايتهم من الاضطهاد لاسيما وان الإمبراطور صار في عداد المسيحيين، وهذه المشكلة- أي تحديد العلاقة بين الكنيسة والدولة- برزت في الوقت الذي انقسمت فيه الكنيسة إلى شرقية وغربية، وكانت الفكرة السائدة في ذلك الوقت، هي انه لا يوجد فرد واحد يشك في أن المناصب الحكومية في الإمبراطورية قد اقرها الرب لإدارة شؤون العالم المسيحي3.

ولم يلبث أن شهد الغرب الأوروبي في العصور التالية نزاعاً حاداً بين البابوية والإمبراطورية، استمر حتى سنة 1250م تقريباً، ومر بادوار عديدة،ومهما تعدد الأسباب الظاهرية التي أدت إلى إثارة الحرب بين الفريقين في كل دور، فان السبب الحقيقي الذي كمن وراء ذلك النزاع بجميع أدواره، هو مبدأ السمو والتنافس بين السلطتين الكنسية والعلمانية حول سيادة العالم وأيهما اسمي:البابا أو الإمبراطور؟ وأيهما يجب ان تكون له الكلمة الأولى في العالم الغربي: الدولة أم الكنيسة[4]؟ على أننا نعتقد أن العلاقة بين الكنيسة والدولة لم تكن بالكامل عبارة عن صراع دائم مستمر، حيث أن هناك فترات كثيرة سادت فيها روابط التقارب والمصلحة المشتركة بين الطرفين، وعلى الرغم من الاضطهاد الذي تعرض له بعض معتنقي الديانة المسيحية في

[1])سعيد عاشور: أوروبا جـ2،ص223.
[2]) انجيل مرقس:12:17.
[3]) B.Tierney: Western Europe.p.28,31,198.
[4])سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ2،ص949-950.

الدور الأول بعد مولدها، إلا انه مع مرور الوقت ظهرت نظريات تؤكد سمو الكنيسة والبابوية، وذلك عندما اعتلى عرش الكنيسة بابوات أقوياء، سعوا لتحويل هذه النظريات إلى حقائق واقعة، وكان ذلك في الوقت الذي ظهر بعض الحكام العلمانيين أرادوا أن يؤكدوا سمو مركز الإمبراطور، وعظم مكانته واحقيته في زعامة العلام المسيحي. وكان ان أدى تمسك كل طرف بوجهة نظره واعتداده بمركزه، الى جعل العلاقة بين القوتين في العالم المسيحي تتصف بالصراع الذي اتخذ في اغلب مراحله طابعاً عسكرياً دموياً[1].

والواقع أن الصراع الذي نشب بين أباطرة الدولة الرومانية المقدسة وبين البابوات في روما في العصور الوسطى(1075-1250م)، لم يكن إلا نتيجة مباشرة للتعارض القائم بين السلطتين الدينية والزمنية حول مفهوم مبدأ السمو البابوي، كما كان نتيجة للحركات الإصلاحية التي عمت الكنيسة الغربية آنذاك، وبالتحديد الحركة الإصلاحية التي انبعثت من " دير كالوني" بيرجينديا أوائل القرن العاشر الميلادي(910 م ) والتي استهدفت منذ أيامها الأولى إصلاح الحياة الديرية، ولكنها لم تلبث أن اتسعت وتطورت حتى غدت منهجاً للإصلاح الكنسي العام[2] وهذه المحاولات التي قامت بها الكنيسة الغربية استهدفت كيانها من الداخل والتحرر من السيطرة السياسية على شؤونها، ولتنظيم علاقاتها مع السلطة الزمنية حسب ماجاءت به نظرية السيفيين[3]وهنا لابد من الإشارة إلى نظرية السيفين لم يكتب لها التطبيق العملي الواقعي، وقد حاولت الكنيسة تطبيقها في أواخر القرن الحادي عشر ولكنها عادت على السلطتين الإمبراطورية والبابوية بعواقب وخيمة[4].

والواقع ان المتأمل في تاريخ الكنيسة الرومانية يجد إنها كانت عرضة للسيطرة العلمانية منذ اعتراف قسطنطين بالمسيحية(313م) وإذا كانت بعض الظروف السياسية قد أتاحت لكنيسة روما التخلص من

---

(1) N.Zacour:An Introduciton,p.174-175.

(2)سعيد عاشور: اوربا جـ1، ص 339-340.
كانتور: العصور الوسطى، ص 367-375.

(3)نظرية السيفين:"Theory of the two swords" وخلاصتها ان الله سبحانه تعالى له ملك الدين والدنيا، وبيده سيفان مسلولان احدهما يمثل سلطانه على الأرواح، والآخر يمثل سلطانه إلى الأبدان، أي ان احد السيفين يقوم على الحكومة الدينية والآخر sacerdotium، بينما يقوم الآخر على الحكومة العالمية أو الزمنيةRegnum وبعد انتشار المسيحية في روما على يد القديس بطرس احد تلامذة المسيح، سلمه الله كلا هذين السيفين. فأعطى بطرس بسيف الأرواح للبابا، وسيف الأبدان للإمبراطور ولما كانت الروح تفوق الجسد في تلك الأزمان، التي هيمنت فيها الكنيسة في الغرب على مصائر الناس ومقدراتهم فقد ترتب على ذلك تفوق البابوية على الإمبراطورية وكان من أهم من نادوا بهذه النظرية العالم الانجليزي يوحنا السالسبوري الذي مات عام 1180م. هارتمان: الدولة والإمبراطورية، ص54.

(4)فشر : تاريخ أوروبا، ص 257-260.
محمود عمران: معالم تاريخ أوروبا،ص289-304.

التدخل الحكومي المباشر في بعض المراحل، فان ظروفاً سياسياً أخرى أوقعتها تحت تأثيرات ثيودوريك(493-526م) ملك القوط الشرقيين، فضلاً عن بعض أباطرة الشرق. وكان ان اتجهت الكنيسة الغربية نحو دولة الفرنجة في عهد الأسرتين الميروفجية(500-753م) والكارولنجية(754 -888م)، واعتمدت على حكام الفرنجة اعتماداً كبيراً في حماية كيانها. ولم يكن هناك مجال لتطبيق نظرية السيفين حينما توج شارلمان سنة 800م إمبراطورا بيد البابا، لأنه كان في واقع الأمر حاكماً ثيوقراطياً، وان كانت الكفة الراجحة بجانب السلطة الزمنية وهكذا شهد ذلك الدور تداخلاً واضحاً بين السلطتين الزمنية والدينية وزاد من ذلك الارتباك غزوات الفيكنج من جهة وانتشار الإقطاع الذي سرى إلى المؤسسات الدينية من جهة أخرى[1] وصفوة القول انه إذا كان الإمبراطور قسطنطين (306-337م) لم يتردد في التدخل- إذا لزم الأمر- في الشؤون الداخلية للكنيسة، فان الكنيسة غدت بعد ذلك بحكم الضرورة موضع اهتمام الأباطرة والواقع أن الأباطرة كانوا على استعداد للاستعانة بأية سلطة يمكن أن تساعدهم في تحقيق وحدة العالم الروماني تحت سيادتهم من هذه السلطات كانت كنيسة روما التي برزت بمكانتها المستمدة من القديس بطرس،، لذا فليس من المستغرب أن نجد الإمبراطور جراثيان(375-383م) يساند أسقف روما عام 378م في مطالبته بالسيادة على بقية اساقفة الغرب. وكان كل مايهتم به الأباطرة في العصر المسيحي الأولى هو تحقيق وحدة العقيدة[2]. ولكن حدث بعد ذلك – بعد مضي الوقت- أن ابتعدت كنيسة" روما" بالتدريج عن الإمبراطورية، وكان ذلك نتيجة لبعض التطورات السياسية التي لم يكن البابا مسؤولاً عنها[3].

ذلك أن الحكام العلمانيين كانت لهم مصالح عند الأساقفة، فهم مستشاروهم الروحانيون، أي أنهم في كثير من الحالات سند للحاكم. هذا فضلاً عن ان الملوك والأباطرة استخدموا رجال الكنيسة في أداء مهام أخرى متنوعة ففي ألمانيا كانت تسند إليهم وظائف مدنية والتي تعتبر غريبة بالنسبة لمهامهم الأساسية الدينية، وكان التصور العام في داخل المجتمع المسيحي ـــ هو أن يعمل رجال الكنيسة والعلمانيون جنباً إلى جنب لتحقيق أهداف مسيحية عامة. ولكي يحصل الملك على مساعدة رجال الكنيسة كان يرفعهم إلى مكانة النبلاء وبذلك ابتعدوا عن جو التقوى والتدين وسرعان ما اتضح أن النبلاء الروحانيين أفضل من النبلاء العلمانيين

---

[1]) ج.و.كوبلاندوب. فينوجرادف: الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا، ص 62-133.

[2]) G.Barraclough:The medieval Papacy.p.24-24.

[3]) G.Barraclough:The medieval Papacy.p.22-28 .

حيث أنهم دربوا تدريبا جيدا لممارسة مهامهم الدنيوية[1] وهكذا درج رجل الدين في سلم اجتماعي غريب عن طبيعته في ظل المنصب والألقاب الدنيوية. وفي ذلك الوقت نفسه اعتقد أن الكنيسة هي صاحبة السيادة على الأمراء والحكام[2].تصارع القوى السياسية وخاصة في ايطاليا في العصور الوسطى كما عانت البابوية من تنافس الحكام، وهي الظاهرة التي اتضحت على مدى قرن ونصف من الزمان ابتداءً من القرن العاشر [3].

وفي بعض الأحيان كانت الكنيسة تمارس بعض النفوذ العلماني، اما في الشؤون الدينية فان الحاكم العلماني لم يكن له نفوذ يذكر ومع ذلك كان يوجد خطر متزايد لما كان يحدث أحيانا من التدخل الذي لامبرر له في الشؤون الروحية، امافي الكنيسة الشرقية،ولاسيما منذ القرن الرابع فصاعدا، فكانت معارضة البابا لرأي الإمبراطور تعتبر خيانة عظمى[4].

ومنذ سقوط الإمبراطورية في الغرب سنة 476م، والعلاقة بين البابوية وأباطرة القسطنطينية في الشرق يغلب عليها طابع السوء وعدم الوفاق ، وربما العداء في كثير من الحالات . وظل الأمر على ذلك حتى قيام دولة الفرنجة في الغرب وما كان من تقارب بين هذه الدولة والبابوية ما هيأ للبابوية سندا تستند إليه في مواجهة خصومها في الشرق والغرب جميعا هذا على الرغم من أن الإمبراطور البيزنطي ظل تمتع بسيادة– ولو اسمية– على الغرب بوصفه وريث الأباطرة الرومان، وذلك حتى تتويج شارلمان وإعلانه امبارطوراًسنة800م مما أود منافساً خطيراً للإمبراطور البيزنطي، وحرم الإمبراطورية البيزنطية من كل سيطرة تدعيها على البابوية والعالم الغربي[5]

ولكن تصدع إمبراطورية الفرنجة وانتقــال مركز الإمبراطوريــة الرومانيــة المقدســة، أدى بدوره إلى ظهور الصراع على السلطــة من جديــد بين الكنيسة والإمبراطورية الغربيــة خاصة في فترة حكــم اوتو الاول(962–973م) حيث أن اوتو أراد أن يسطر على الكنيسة الألمانية كوسيلة للسيطرة على ألمانيا. لذلك رأى أن يبدأ بإخضاع البابا أو على الأقل اكتسابه إلى جانبه وطالما كان البابا خارجاً عن قبضة الإمبراطور ، فان أحلام اوتو الاول في السيطرة على ألمانيا عن طريق وساطة رجال الدين لن تتحقق بشكل مضمون . وهكذا تحددت الخطوة التالية أمام اوتو وهي التدخل في شؤون ايطاليا للسيطرة على البابوية[6]. وهذا

---

[1]). Cam.Med.Hist:vol.5p.6

[2])ه.و.ديفز : أوروبا في العصور الوسطي ، ص179؟.

[3])محمود عمران معالم تاريخ اوربا، ص 292.

[4]( N.Zacour:An Introducito To Medieval,p.176.

[5]) سعيد عاشور: أوروبا جـ1.ص208.

[6])فشر : تاريخ أوروبا، ص139-140.

وكان أن تتابع الأباطرة في الغرب بعد اوتو، فتمتع هنري الثاني(1002-1024م) بسلطان واسع فوق الكنيسة، فأحبه رجال الدين لتقواه وتدينه وحبه للخير، وفي الوقت نفسها استغل الأساقفة ومقدمي الأديرة كأداة له في تنفيذ سياسته الدنيوية، حتى أصبحوا ممثلين للسلطة الإمبراطورية في مناطق نفوذهم[1] .

و لم يلبث أن انتقل عنصر المبادأة في غضون سنوات قلائل إلى أيدي البابوات، وكان ذلك بعد وفاة هنري الثالث سنة1056م. وبوسعنا أن نعتبر الهجوم المضاد الذي شنه البابا جريجوري السابع على الإمبراطورية بمثابة رد فعل " لما تعرضت له البابوية من تدخل في شؤونها" الأمر الذي حرم البابا من بسط نفوذه الفعال على سيادة الإمبراطور مثل ما كان الحال في القرن التاسع، ولا شك في أن تدهور الإمبراطورية البيزنطية في الشرق بعد وفاة الإمبراطور باسيل الثاني حوالي سنة 1025، أدى إلى تحرير البابوية من سطوة أباطرة الشرق، مما مكنها من أن تتخذ موقفاً أكثر استقلالاً ، هذا إلى أن ظهور النورمان[2] في البحر المتوسط، كان عاملاً آخر يمكن البابوية من مواجهة الإمبراطورية الغربية، ويعتبر الانشقاق الديني[3] بين الشرق والغرب عام 1054م بمثابة نقطة تحول فيما نحن بصدده[4]. ويلاحظ أن البابوات الذين تولوا منصب البابوية بين سنتي 1045،1057م خضعوا لسيطرة أباطرة الغرب عليهم سيطرة تامة دون أن يعترض أي منهم على تلك السيطرة و لم سيكن هذا كله في صالح الإمبراطورية كما يبدو في ظاهر الأمر لأن القبضة التي أحاطت بعنق البابوية كانت شديدة، مما جعلها تدخل بكل ثقفها في معركة ضد الإمبراطورية لتحرير نفسها من تلك

---

هارتمان: الدولة والإمبراطورية، ص44و46.
سعيد عاشور:أوروبا جــ1، ص300.
سعيد عاشور:أوروبا جـ2، ص94-95.
[1]) سعيد عاشور:أوروبا جــ1، ص312.

[2])النورمان: استخدمت البابوية والبيزنطيون النورمان كفرق أجيرة ومنذ عام1060 اخذوا يعلمون لحسابهم الخاص، واستطاع النورمان عام 1071 م الاستيلاء على باري البيزنطية وفي عام 1091 استولى النورمان على صقلية ومالطة من السيادة العربية للمزيد، الاطلاع على مراجع تاريخ العصور الوسطى بقائمة المراجع.
[3]) الانشقاق الكبير أو القطيعة الدينية الكبرى عام 1054 ، وهي لأسباب متعددة بدأت بوضوح في الاتساع بين الشرق ولغرب بعد تتويج شارلمان عام 800م إمبراطورا على يد البابا في روما. وقد جاءت الفتنة الكبرى أثناء بابوية ليوا لتاسع في روما والبطريق مخائيل كيولارريوس في القسطنطينية. حتي أن البابوية في روما أرادت السيادة على جميع الكنائس المسيحية وفقا للنظرية البطرسية وبخاصة بعد انتشار حركة الإصلاح الديني الكلوني. هذا ولقد تصرف المندوب البابوي عبرت بغطرسة وعجرفة أثناء إيفاده للقسطنطينية مما أشعل الصراع بشدة. هذا وان الانشقاق الكبير مثلما كان لأسباب متعددة فقد أدى إلى نتائج عديدة بين الشرق اليوناني ولغرب اللاتيني.
ويلاحظ الفرق بين الانشقاق الكبيرة في عام 1054م وبين الانشقاق الي حدث في غرب أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشرة(1378-1417م) فألا ول بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية والثاني داخل الكنيسة الغربية.
هارتمان : الدولة والإمبراطورية، هامش ص217.
سنين ربيع: داراسة في تاريخ الدولة لبيزنطية، دار النهضة، القاهرة 1986،ص164-165.
جوزيف نسيم: العرب واللاتين دار النهضة العربية ، بيروت 1981ص117-118.
عبد القادر احمد اليوسف: العصور الوسطى الأوروبية، منشورات المكتبة العصرية،بيروت1967، ص 314-315؟.
[4])هارتمان: الدولة والإمبراطورية، ص216-217؛ حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة، ص164-165؛
جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين،ص117-118.

القبضة، وهكذا غدا الصدام حتمياً بين القوتين، وفي سنة 1059م اصدر البابا نيقولا الثاني مرسوماً يهدف إلى تحرير الانتخابات البابوية من التحكم الخارجي للحكام العلمانيين، كخطوة أولى نحو تحرير كالمناصب الكنيسة من التحكم العلماني[1].

بعد وفاة الإمبراطور هنري الثالث (1039-1056)كان ابنه القاصر هنري الرابع(1096-1105) في وضع ضعيف للغاية لا يمكنه من تعزيز حقوقه التقليدية، فلبث تحت الوصاية مدة تجاوزت خمس عشرة سنة(1056-1072م)، ولا نشك في أن قيام صبي قاصر على عرش الإمبراطورية تلك السنوات الطويلة كان له تأثير خطير على الإمبراطورية وسلطانها، في الوقت الذي نفخت الحركة الكلونية روحاً جديدة في الكنيسة الغربية أدت إلى ازدياد نفوذ البابوية التي وجدت حلفاء أقوياء لها في النورمان بجنوب ايطاليا من جهة وفي كونتة تسكانيا من جهة أخرى[2].

بعد انتخاب هيلد براند لمنصب البابوية باسم جريجيور السابع (1073-1085) وجد الإمبراطور نفسه في خلاف قوي مع البابوية ، التي وضعت نفسها على قمة الحركة الإصلاحية، وكانت تلك الحركة لاتستهدف مجرد تصحيح الفساد في الكنيسة وسوء استخدام السلطة، وإنما أيضا إعادة تنظيم العلاقات بين السلطة العلمانية والسلطة الكنسية،اذ كان البابا يرى أن الإمبراطور هنري الرابع يأمره فيها بان يصلح سياسته في ألمانيا وان يوقف تدخله في شؤون الكنيسة هناك، حيث أن الإمبراطور كان مشتبكا مع الثوار السكسون[3]. واستمر الصراع لمدة طويلة بين هنري الرابع والبابا جريجوري السابع، ويلاحظ أن هذا البابا لم يأت بجديد في نظرية السمو البابوي، ولكنه أراد تحويل هذه النظرية إلى وواقع عملي، وأدت سياسته إلى الكثير من المعارك بين القوتين الدينية والعلمانية، وانتهى الدور الاول من ادوار الصراع بإهانة كبرى لحقت بالإمبراطورية فيم تعرف بضربة كانوسا في يناير1077م، والتي أتت ضربة قاسمة للإمبراطورية، التي لم تسترد هيبتها ومكانتها

---

[1])سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص325
N.Zacour:An Introducito,p.181.

[2]) سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص350.
N.Zacour:An Introducito,p.181

[3])
Cam.Med.Hist:vol.5p.331
G.Barraclough:The medieval Papacy.
Tierney:Western Europe,p.201-211.
N.Zacour:An Introducito,p.181.

السابقة مطلقاً بعد ذلك، وقد مرّ الصراع بين البابوية والإمبراطورية بثلاثة ادوار، واستمر قائماً طوال عصر الحروب الصليبية، وهي الفترة التي تميزت بمحاولة تنظيم نفسها وتحرير كيانها من سيطرة العلمانية[1] في شؤونها.

[1])سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص 346-406.
فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص 149-150.
هانس أ.ماير: تاريخ الحروب الصليبية ،ص12.
عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 105.

# د- صحوة الكنيسة وحركة الإصلاح الديني في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر

نلاحظ ان البابوي لم تستطع أن تحقق أطماعها في الزعامة والسمو إلا بعد أن مرت الكنيسة الغربية بوجع عام بدور من الإصلاح والتطور، الأمر الذي مكن البابوية من الوقوف على رأس الكنيسة في وجه القوى المعارضة حتى خرجت في النهاية مرفوعة الرأس[1]. وكانت الكنيسة تعاني عندئذ ثلاثة أمراض خطيرة، هي السمونية[2] وزواج رجال الدين والتقليد العلماني. وتعتبر حركة الإصلاح التي بدأت في الكنيسة بصورة فعلية قبيل الحروب الصليبية مظهراً من مظاهر النهضة الأوروبية التي لاحت بشائرها في الأفق الأوروبي منذ القرن الحادي عشر ثم ازدهرت في القرن الثاني عشر، وذلك على اثر الاستقرار النسبي الذي ساد أوروبا الغربية بعد الغزوات والضربات المختلفة التي تعرضت لها أوروبا في القرون السابقة. وقد أسهم في إصلاح الكنيسة تياران: احدهما صدر من دير بندكت والآخر من دير كلوني، ومن هذا يبدو أن هذه الحركات الإصلاحية نبعت من أصول ديرية[3] وكانت بذور حياة الرهبانية قد ظهرت في الشرق منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الثالث للميلاد ، وأخذت تقوى وتزداد انتشاراً بعد ذلك حتى وصلت إلى الغرب الأوروبي في القرن الخامس. ومن أعلام الحركة الديرية ومؤسسيها في غرب أوروبا كان القديس بندكت النورسي(458-540م) الذي أقام ديره الشهير في مونت كاسينو بايطاليا على أساس الجمع بين العبادة والعمل، وسرعان ما انتشر النظام الديري البندكتي في غرب أوروبا حيث أطلق على الرهبان البندكتيين اسم الرهبان السود وعرفت الفترة بين سنتي500 و1150 م غالباُ باسم "القرون النبدكتية" وللديريين البندكتيين أفضل في تعمير الأراضي الجديدة التي استقروا بها وزرعوها بعد إصلاحها، كما عنوا بالفقراء والمساكين، وهم كذلك أصحاب الفضل في صون المخطوطات الدينية ونسخها والحفاظ عليها من الضياع والنسيان[4]. وهكذا صار ديرمونت كاسيو

---

[1]) سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص 333-334.

2) سفر أعمال الرسل ، الإصحاح الثامن،18-20.

تنسب السيمونية إلى سيمون الساحر الذي ورد عنه في العهد الجديد" ولما رأى سيمون انه بوضع أيدي الرسل يعطى الروح القدس قدم لهم دراهم،قائلا أعطياني أنا أيضا هذا السلطان حتى أي من وضعت عليه يدي يقبل الروح القدس، فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتني موهبة الله برداهم".

سعيد عاشور : أوروبا جـ1، ص342.

The American Historical Review, vol.93,No.2April 1988,137.

History:vol.58,No 193,June 1973,p.169-170.

G.Barraclough:The medieval Papacy.

[3])سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ1،ص20-21.

سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص348-349.

[4]) فشر: تاريخ أوروبا، ص113.

سعيد عاشور: أوروبا جـ1،ص172-185؛عبد القادر اليوسف:العصور الأوروبية،ص 72-75.

مركزاً وأباً روحياً لشبكة واسعة من الأديرة التي تأسست غرب أوروبا وفقاً للنظام الأساسي الذي وضعه القديس بندكت.

ويقوم هذا النظام البندكتي على ثلاثة أركان أساسية هي إنكار الذات والطاعة والعمل، ويلاحظ من تاريخ الحركة البندكتية أن مقدم أو رئيس الدير كان يتحمل مسؤولية جسيمة لأنه هو المسؤول أمام الله لا عن تصرفاته فحسب، بل عن تصرفات بقية أعضاء الدير[1]. وتتميز الحياة الديرية، كما يصورها الدستور البندكتي بأنها حياة عامة غاية في التنظيم، والترتيب الصارم والنظام الثابت. ولم يتضمن الدستور البندكتي أية صورة من صور الرهبانية المتطرفة، إذ كان بندكت يتمتع بحس روماني متوازن، وبنظرة سيكولوجية ثاقبة فيما يتعلق بالقيود التي يمكن أن تلائم طبيعة البشر[2]. ويلاحظ أن ثمة عوامل خاصة دفعت بأعداد كبيرة من الرجال والنساء إلى ذلك النوع من الحياة التنسكية الآمنة، وهذه العوامل بلا ريب مزيج من السمو الروحي، والنزعة الدينية، والخوف من عذاب الآخرة، والرغبة في التحرر من أعباء الحياة، والحياة في جو هادئ، ولم يلبث لهذه العوامل أن اجتذبت الكثيرين من الناس إلى الحركة الديرية بدافع الشعور باستحالة العيش في عالم مزقته إغارات الأعداء ودكت أركانه الحروب[3]. على انه حدث في القرون الثلاثة التي أعقبت وفاة بندكت، أن تعرض النظام الديري البندكتي لتغيرات هامة تتعارض مع القواعد التي وضعها القديس بندكت. وقد أدت إلى ذلك عدة أسباب منها تفكك إمبراطورية شارلمان، وعدم استقلال أديرة عن السلطة العلمانية، مما جعل الحياة الديرية في غرب أوروبا عند نهاية القرن التاسع مفتقرة إلى إصلاح شامل سريع يعالج ما تعرضت له من أمراض وعيوب[4] وجاء هذا العلاج على يد الحركة الكلونية التي تنسب الدير كلوني في أوائل القرن العاشر الميلادي(910م) ويقع دير كلوني هذا في إقليم برجنديا بالقرب من الحدود الألمانية الفرنسية، وفيه بدأت الحركة الكلونية ضيقة في أول الأمر ثم أخذت تتسع تدريجياً، إلى أن غدت في القرن العاشر مثلاً يحتذي به في النظام والاستقامة. أما النظام الكلوني فقد قام على أساس الاستقلال التام عن السلطتين الدينية والدنيوي، بحيث يكون اتصاله

---

وللاستزادة عن الرهبنة انظر ملحق رقم (6).
[1]) سعيد عاشور:أوروبا جـ1، ص 181-182.
سعيد عاشور:أوروبا جـ1،ص240-241.
فشر:تاريخ أوروبا،ص 113-114.
محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوروبا، ص 156-157.
كانتور: العصور الوسطى،ص259-268.
[2]) سعيد عاشور:أوروبا جـ1، ص 181-182.
فشر:تاريخ أوروبا،ص 113-114.
محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوروبا، ص 156-157.
نورمان كانتور: العصور الوسطى، ص 261.
[3])فشر:تاريخ أوروبا ،ص 114
[4]) سعيد عاشور: أوروبا جـ2،ص242.

مباشراً بالبابوية، هذا مع تجنب استقلال الأديرة بعضها عن بعض، و لم تلبث أن ظهرت في دير كلوني حركة استهدفت إصلاح الكنيسة والبابوية من المفاسد والشرور التي تغلغلت أجهزتها. والواقع أن الكلونيين لم يكونوا مجددين تماماً، إذ استمدوا بعض مبادئهم من النظام الباخومي الذي عرفته مصر والشرق في القرن الرابع كذلك عني رهبان كلوني بالعلوم والزراعة والأعمال الأدبية. ومن هنا كان لهذه الحركة آثارها البالغة الأهمية، فأصبحت حركة دولية بعد أن امتدت حدودها فرنسا نفسها[1].

يمكننا القول أن الحياة التي جسدها دير كلوني في مجملها، كانت استمراراً وتكثيفاً للنظام البندكتي الذي انتشر في القرن التاسع. وإذا كان الرهبان البندكتيون قد مارسوا نشاطاً دينياً واقتصادياً وعلمياً وسياساً، فإن هذا النمط نفسه من أنماط الحياة هو الذي تميز به دير كلوني أبان القرنين العاشر والحادي عشر[2]. ولكن الحركة الكلونية تميزت بالعمل على إصلاح الكنيسة وتطهيرها مما كانت تعانيه من انحلال بسبب تدخل رجال السلطة الزمنية في شؤونها. بذلك نفخت هذه الحركة في الحياة الديرية روحاً قوية "أدت إلى قيام كثير من الأديرة الجديدة. و لم تلبث هذه الأديرة أن انتشرت في شمال غرب أوروبا وفي انجلترا نفسه بعد الغزو النورماندي في القرن الحادي عشر[3]. وإذا كانت حركة الإصلاح الكلونية قد بدأت بالعمل على نشر العفة والتقوى والنظام في الأديرة، إلا أنها اتسعت كما تتسع الحركات المشابهة حتى غدت منهجاً للإصلاح الكنسي العام[4].

كان الرئيس الأعلى الوحيد المشرف على شبكة الأديرة الكلونينة هو مقدم دير كلوني وعليه دون غيره تقع مسؤولية تنظيم كل الأديرة الكلونية وله أن يقوم بالتفتيش عليها بنفسه[5]. ثم ظهر جيل من الكلونيين طمعوا في مزيد من الإصلاح، إذ قالوا أن تعاليم المسيح لن تمكث في الأرض إلا إذا وجدت كنيسة مستقلة يرأسها بابا واسع النفوذ والسلطان،وهكذا تغلبت روح الحماسة على الحركة الكلونية كلها فاتجهت نحو إعلاء شأن البابوية[6]، التي تعاني مثلما عانت الكنيسة والحياة الدينية بوجه عام من أمراض خطيرة فشت فيها، وهي السيمونية وزواج رجال الدين وتدخل رجال السلطة الزمنية في اختيار رجال الدين للمناصب الكنسية، و لم تلبث أن أدت حركة الإصلاح الكلونية إلى

---

[1]) هامش كولتون: عالم العصور الوسطى، ص 172-173.

G.Barraclough:The Medieval Papacy,p.65.

نورمان كانتور : العصور الوسطى الباكرة،ص 367-375

فشر : تاريخ أوروبا، ص146-158.

[2])نورمان كانتور: العصور الوسطى الباكرة، ص368.

[3])سعيد عاشور: أوروبا جـ2،ص243.

[4]) فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص145.

[5]) B.Tierney:Western Europe,p.250.

[6])فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص145.

ظهور بعض البابوات المصلحين أهمهم ليو التاسع (1049-1054م) ونيقولا الثاني(1059-1061م) وجريجوري السابع (1073-1085م)وقد سبق أن تعرضنا للإصلاحات التي قام بها هؤلاء البابوات في الجوانب الداخلية، وهي تتمثل في إصلاح الجهاز الكهنوتي، عن طريق تطبيق مبدأ العزوبة رجال الدين والإقلاع عن السيمونية، وهي شراء الوظائف الدينية بالمال والرشوة، ويلاحظ أن هذه الإجراءات تتعلق بأمور تخص الكنيسة ورجالها، أي بمعنى أنه ليس هناك طرف خارجي بالمعنى المطلق. ولكن عندما أرادت الكنيسة" البابوية" منع العلمانيين من التدخل في شغل المناصب الدينية، أي تعيين رجال الدين في المناصب الدينية لقاء منافع مشتركة متبادلة وأصدر البابا جريجوري السابع قراره الشهير الذي نص على انه ليس من حق الحاكم العلماني كائناً من كان، أن يقلد أحد من رجال الكنيسة مهام منصبه الديني، عندئذ انزعج الملوك والأمراء واعتبروا ذلك حرماناً لهم من بسط نفوذهم، كما يعني جعل البابا في روما المشرف الوحيد على جال الدين في العالم المسيحي الغربي، من حيث تعيينهم في مناصبهم الفصل في مشاكلهم والإشراف على أعمالهم .

وهكذا أخذت سياسة البابوية تنذر بصدام عنيف مع الحكام العلمانيين، وهو الصدام الذي اندلع وشمل كافة المناطق الأوروبية واستمر طيلة العصور الوسطى.